العلم والمدنية الحديثة

(٢)

يظهر ان الانسان الحقيقي وجد على هذه الارض منذ نحو نصف مليون سنة . ولا نعلم الاَّ القليل عن سكان قارة اسيا الاولين . اما سكان قارة اوربا الاولون فعلمنا بهم اوسع نطاقاً . واقدم آثار الانسان في اوربا آثار الانسان المعروف باسم Homo neanderthalensis وقد انقرض فلا وجود لهُ الآن. وجاء على اثرهِ نوع الانسان المعروف باسم Homo sapiens فتفرع منهُ في خلال الوف السنين فروع كثيرة صارت فيما بعد قبائل متباينة . والظاهر ان جميع قبائل البشر الموجودة الآن فروع لهذا النوع الكبير

وقد كان السبب الاكبر في تعدد القبائل البشرية هذا التعدد الكثير انفصالها بعضها عن بعض . وبيان ذلك ان النوع الانساني انتشر من مقامهِ الاول الى جميع الجهات فقطنت قبائل منهُ اجزاء مختلفة من اسيا وافريقية واوربا وجزر الباسيفيكي وكانت كلُّ قبيلة منها منفصلة عن الاخرى لا تختلط بها ولا تمازجها فكان من هذه العزلة او هذا الانفصال انها نشأت مستقلة واصبحت على تمادي الزمن قبيلة تختلف عن غيرها كثيراً او قليلاً . ولو ان سلف السكندناويين والعرب والانجلوسكسون والزنوج واليونانيين والصينيين عاشوا متمازجين متزاوجين ما عرفنا خلفهم من السكندناويين والعرب والانجلوسكسون والزنوج واليونانيين والصينيين كما نعرفهم الآن بل لرأيت مكانهم قبيلاً متجانساً يفترق عنهم جميعاً . فقبائل الانسان انما افترق بعضها عن بعض بالعزلة او الانفصال

على ان هذا الانفصال اخذ يزول الآن بسرعة لان وسائط النقل وتبادل الافكار ارتقت ارتقاء عظيماً وسكان الارض يزدادون وينتشرون في جميع بقاعها الصالحة للسكنى حتى بات الناس بعضهم جيران بعض . فنحن الآن في فجر اليوم الذي قد للناس فيهِ ان يسكنوا معاً كأنهم اهل منزل واحد . وهذه المساكنة تفضي بالطبع الى تبادل انواع الحضارات بل الى تمازج الافراد ايضاً بحيث يتعذر على قبيلة من قبائل الناس ان ترتقي مستقلة عن سائر القبائل . وعليهِ فلا يبقى بعد

ذلك مجال لنشوء قبائل يختلف بعضها عن بعض كما كانت الحالة فيما مضى . فكانت الآن في مفتتح عصر جديد انتهى فيه نشوء القبائل عند نقطة وابتدأ تلاحمها واندغامها بعضها في بعض . ومتى ازداد هذا الاندغام زالت الفروق الظاهرة التي تميز قبائل الناس بعضها عن بعض وبات النوع الانساني قبيلة مختلطة مؤلفة من القبائل الحاضرة التي تفوز بالبقاء . ولا يمكن منع هذا الاندغام مهما بذلنا من الجهد في منعه ما دام تمازج الناس في عيشتهم الاجتماعية على ازدياد دائم في جميع انحاء المسكونة . وحوادث الزواج غير الشرعية التي تعقب هذا التمازج كافية على مرور الايام لمحو كل الاختلافات التي بين قبائل الناس مهما يبالغوا في انكار الزواج الشرعي بين قبيلة وقبيلة

والناس في هذه البلاد ينكرون كلّ الانكار تزاوج البيض والسود . والولايات التي يكثر السود فيها سنت قوانين شديدة ضدّ هذا التزاوج . ومع شدة هذه القوانين ترون الزنجي الاسود في اميركا يبيضّ شيئاً فشيئاً . فلا تمضي بضعة قرون حتى يتعذر رسم خطّ يفرّق بين الابيض والاسود في هذه البلاد

ولقد مرّ على اوربا الف سنة او اكثر واليهود يمقوتون فيها ولكنهم قاوموا مضطهديهم بكبريائهم وتألف من هذه الكبرياء ومن هذا المقت احصن حاجز يمكن تصوره دون تزاوج الفريقين . ونحن الاميركيين لا نكاد نتصور مرارة هذا المقت وشدة مقاطعة اليهود اجتماعيًّا في اوربا وغرب اسيا مدة قرون طوال . ولكن بالرغم من قيام هذه العقبة الكأداء في سبيل التمازج وهي عقبة لا يستطيع الناس اقامة اعظم منها فان هذا التمازج جرى مجراه ولم يحوّله عنه محوّل . فاليهودي السوري سوريّ في ملامحه واليهودي الاسباني له كثير من ملامح الاسبان واليهودي الالماني له صفات التوتون واليهودي الروسي صقلبي في معظم صفاته . اي ان اليهودي في كل بلد يشبه جاره المسيحي او المسلم منه يشبه اخاه اليهودي في البلد النائي او اكثر مما يشبهه . فالتعصب الجنسي والمقاطعة الاجتماعية وسنّ القوانين هذه كلها عاجزة من صدّ التيار الجارف تيار التلاحم الجنسي . فلا مناص والحالة هذه من تلاحم جميع قبائل البشر التي تبقى في المستقبل بعد التمازج الجاري الآن . وسواء كانت هذه الفكرة مستحبة او مستهجنة فهي لا

تؤثر في النتيجة وهذه النتيجة هي ان الناس سيبيتون في مستقبل الزمان قبيلة واحدة متجانسة فالواجب ان نعدّ الافكار لهذا الامر

واذا كان ذلك كذلك فاهمّ المسائل التي نسألها بشأن قبيلة من القبائل الموجودة الآن اثنتان الاولى هل قدر لهذه القبيلة البقاء لتكوّن جزءاً من القبيلة الواحدة العتيدة . والثانية ما يكون شأنها او اثرها في ذلك التكوين . فنقول في الجواب ان من القبائل ما لا يبقى بل لا بدّ ان يغلب على امره في تنازع البقاء ويمحي في عداد القبائل البائدة بسبب كثرة تماسّ القبائل وتمازجها واشتداد التزاحم في مضمار الحضارة التي هي كلّ يوم في تقدم وارتقاء. فالهندي الاميركي وهو اطيب القبائل المتوحشة عنصراً لا يدانيه سوى الماوري اهل نيوزيلندا الاصليين والزولو من اهل جنوب افريقية جعل ينقرض منذ زمان ليس بالوجيز وهكذا يقال في الهندي من سكان اميركا الوسطى . فانهما كليهما شديدا المراس صلبان تعوزهما المرونة اللازمة للمطابقة بينهما وبين محيطهما ولتكييف اخلاقهما واحوالهما المعاشية على الزمان القلوب الذي هو واهله كلّ يوم في شأن

وهذا ايضاً شأن سكان استراليا الاصليين وتسمانيا وغيرهم من القبائل الصغرى فانها صائرة الى الفناء لا لعيب يعرض لها ولا لسوء معاملة تعامل بها بل لعجزها عن تكييف معيشتها على مقتضى المطالب العصرية بخلاف الزنوج فانهم ابدوا في كلّ مكان ينزلونه قدرة على تكييف انفسهم بالمكيفات الحديثة واقتباس اساليب المجتمع الحاضر على اختلافها وتعددها وقابلية عظيمة للتربية الاجتماعية

وليس من السهل علينا ان نبدي حكماً قاطعاً في القبيلة التي تبقى والقبيلة التي تبيد ولا من الصواب في شيء ان نقول ان الامم العالية في سلم الحضارة الآن هي التي تبقى والواطئة هي التي تفنى. على انهُ اذا كان هناك امة تدلّ الدلائل الكثيرة على بقائها فهي الامة الصينية فان كثرة عديدها وقدرتها المشهورة على المعيشة في مستوى اقتصادي وافيء اي باتفاق اقل النفقات وحبها للسلام وثبوت الاخلاق الشخصية في افرادها ومتدرتهم العقلية وتلبيتهم لاسمى المبادىء الادبية هذا كلهُ يدلّ على ان هذه الامة ستبقى وستكون في عددها ان لم يكن في غيره عنصراً من اعظم العناصر في الامة العتيدة

وربّ سائل يسأل أيكون للصينيين من التأثير في تعيين نوع الحضارة التي تعيش تلك الامة في كنفها ما يكون لهم من التأثير في عددها . وبعبارة اخرى هل يؤثر الصينيون في تلك الامة عقلياً وادبياً كما يؤثرون فيها مادياً . وعندي ان ذلك يتوقف في الاكثر على مقدار عنايتهم بنموّهم وارتقائهم في ظل الاحوال الجديدة المنتظرة . فقد اثرت الصين فيما مرّ تأثيراً عظيماً في الرقي الانساني . ذلك ان حضارتها القديمة انتشرت حتى عمت كوريا واليابان فكان لها بذلك اثر واضح في جزء كبير من الناس . وسؤالنا الآن هل تستطيع ان تعيد سيرتها الاولى فيكون لها الآن قسط في تقدم بني الانسان يشبه ما كان لها في سالف الزمان . وليس في الامم امة استطاعت ان تساعد مساعدة كبيرة مرتين في ارتقاء الناس فان مصر واشور وفينيقية واليونان ورومية والعرب والفرس كلٌّ منهم بلغ شأواً رفيعاً في الارتقاء ثم هبط ولم يشدّ دور التجدد الايطالي المعروف باسم الرنسانس عن هذه القاعدة فان الشعب الايطالي الحديث ليس شعب رومية القديمة لان دماً غريباً كثيراً امتزج بالدم الروماني القديم فخرج الشعب الايطالي شعباً جديداً في جوهره

منذ ثلاثين سنة كتب ادورد كربنتر مقالة شائقة في « الحضارة وسببها ودواؤها » ابان فيها سير ما سمّاه داء الحضارة(١) بين الامم التي بلغت درجة سامية من الارتقاء الاجتماعي وسادت كلٌّ في دورها وقال ان اعراض هذا الداء كانت واحدة في جميع تلك الامم وكانت غاية تلك الاعراض ارتقاء يشبه الحمّى في شدتها وسرعتها ثم ترك الداء تلك الامم ضعيفة ضعفاً دائماً لم تنتعش بعده حقّ الانتعاش

فهل تشذّ الصين عن هذه الامم . فقد اثرت في رقي العالم اعظم تأثير فيما مضى وبلغت من الحضارة درجة سامية ومن الصناعة وغيرها حدّاً لم تجاوزه امة اخرى ثم نزلت عن اوجها . وفي القرون الاخيرة سار العالم في سبيله وهو لا يكاد يشعر بوجودها فكأنها حقل بور لا يكاد يخرج نباتاً فهل تكون مثل هذا الحقل اذا

(١) المراد بداء الحضارة ان الحضارة هي نفسها داء فالاضافة هنا من قبيل اضافة الشيء الى نفسه كقولنا مدينة القاهرة

تعهده الفلاح بالحرث والارواء وسائر اسباب النماء . وهل كان خصبها المذخور يتجمع في هذه القرون التي طال فيها عهد اهمالها . وهل هي مستعدة الآن لقبول بزور جديدة وحب جديد ينطلق عن أكل كثير . ذلك ما لا يستطيع احد ان يبدي فيه رأياً جازماً ولكن يخيَّل اليَّ انهُ لا يبعد ان تكون الصين أولى الامم التي تستطيع هذا التجدد العجيب

ولكن هل داله الحضارة بالضرورة وبطبيعته دالة عياله على الدوام كما دلَّت تواريخ الامم البائدة التي كان لها قسط وافر منهُ . أليس من الممكن ان يكون لهُ دواء لم يجرَّب حتى الآن او ترياق يضاد فعل سمهِ . اما انا فارى ان هذا الترياق موجود ولكن يشترط ان نكون قادرين على الانتفاع بهِ . فان معرفتنا بمبادىء تربية الحيوان والنبات وبنواميس التناسل والوراثة ازدادت ازدياداً عظيماً عما كانت قبلاً حتى اننا نستطيع تنشئة امة وتتدرج بها في سبيل الكمال اذا اردنا . ولكننا نخشى ان يكون مثلنا مثل الصبي الذي سئل ألا تستطيع التزام السكون ولو ساعة واحدة . فجاب « نعم استطيع اذا اردت ولكني لا استطيع ان اريد . فنحن نستطيع تنشئة امة تكون اقوى على البقاء من الامم الحاضرة اذا اردنا ولكن هل نقدر ان نريد

لنبحث هنيهة في علم التناسل والوراثة وفي بعض مظاهره وطرائقهِ فنقول : لم نكن نعرف قبل نصف القرن الماضي شيئاً بالتحقيق عما يورث وعما لا يورث . اما الآن فنعرف ان الانسان لا يرث شبهاً عامًّا لاحد والديهِ او مزيجاً عامًّا من الاثنين وانما يرث صفات خاصة محدودة حتى تكون اخلاقهُ مجموعة من هذه الصفات الخاصة المختلطة . وبعبارة اصحَّ يتناول من والديهِ دقائق كثيرة صغيرة من البروتوبلازم وكلٌّ منها تعين صفة خاصة قائمة برأسها . ويقال اجمالاً ان هنالك عاملين لتعيين الصفات الواحد من احد الابوين والآخر من الآخر وطبيعة كل صفة من الصفات في الاولاد تتوقف على تفاعل ذينك العاملين . ويكفي القول هنا اننا نعلمها بالاختبار كيف نربي الحيوانات والنباتات ونتخب الصفات التي نستحسنها فيها ونمزجها بعضها ببعض على المنوال الذي نشاؤهُ وبذلك نتحكم في ماهية نسلها ونعين طبيعتهُ قبل خروجهِ منها . واليكم هذا المثال

منذ بضع سنين جُرِّبت تجارب في تباينين زكيين من تباينات نبات التبغ (الدخان) الواحد ذو اوراق كبيرة جداً والآخر ذو اوراق عديدة جداً. وأُريد جمع هاتين الصفتين في تباين واحد فتمَّ ذلك على اهون سبيل. وما تمَّ في النبات تم مثلهُ في الحيوان وهذا الحكم يصدق على الانسان كما يصدق على غيره من الحيوانات اذا استطعنا التحكم في مزاوجة الناس كما نستطيعهُ في الحيوانات. ولكن ذلك متعذر كما لا يخفى فلا بدع والحالة هذه اذا جرى اصلاح النسل في الانسان مجرى بطيئاً

على اننا نستطيع تربية انفسنا على المبادىء السامية حتى لا نقنع بالجمال الطبيعي او الشجاعة الطبيعية او المقدرة العقلية او الادبية وحدها بل نجعل قياس الكمال في الرجل والمرأة يشتمل على سلامة الجسم والعقل والاخلاق حتى ان كل من يعوزهُ شيء منها يحسب غير لائق للزواج

واعتقادي ان مصير النوع الانساني وخلاصهُ من خطر الانحطاط والاضمحلال بالانغماس في البطر والغنى والبذخ متوقفان على اصلاح النسل. وهذا هو العلم الذي سيسود الجمعية البشرية العتيدة

ولا بدَّ من مرور الوف من السنين لابلاغ النوع الانساني حدَّ الكمال الممكن ولو بمساعدة علم اصلاح النسل. فسئلتنا الآن هي ان نضع امم الارض كلها في طريق التقدم. ولا ترعنا رؤية الجبال البعيدة التي سنبلغها اخيراً فتثبط عزائمنا عن السير والسُّرى بل لتضرم رؤيتها في قلوبنا نار الرغبة وتستحثنا على اطراد السير في سبيلنا. واول ما نتطلبهُ التفتيش عن الحق تفتيشاً علمياً وتشجيع جميع العلوم والفنون التي تحتك بواسطتها بالعلم المبني على الامتحان فترى روح العلم على أثر ذلك تدخل نفوسنا بلا استئذان وروح العلم هي روح التقدم والارتقاء. فلنمتحن كل شيء بلا خوف مهما يكن عهدنا طويلاً بتقديسهِ ولنتمسك بما يثبت الامتحان حسنهُ »